

# العصمة بالآدمية الإنسانية باعتبارها أساس حقوق الإنسان العالمية في القانون الإسلامي\*

د. رجب شنتورك: رئيس جامعة ابن خلدون في تركيا

فيها المجتمع المدني، من حيث خطبة الوداع تلك ودعم الحقوق الجوهرية؟

إن خطبة الوداع المشهورة<sup>2</sup> للنبي محمد (571-632) أرست أسس حقوق الإنسان الشاملة في الإسلام عام 621، حين ألقاها في ساحة عرفة في الصحراء العربية قرب مكة المكرمة، أمام مجموعة كبيرة من المؤمنين اجتمعوا في المكان لتأدية مناسك الحج السنوية. وقد أرست ثلاثة إعلانات في هذه الخطبة أساس الحريات التي تضمنتها الشريعة، والمرتبطة بحقوق الإنسان اليوم، وهي:

الإعلان الأول: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا (أي مكة)».

الإعلان الثاني: «أما بعد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق».

الإعلان الثالث: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى».

يقصد بالإعلان الأول شمولية عصمة البشر. أما الإعلان الثاني والثالث، فهما عبارة عن شرح لهذه العصمة وعن المساواة بين الجنسين والمساواة العرقية على التوالي. وهما يحددان ثلاثة مبادئ دستورية أو قانونية أساسية لقانون اليوم ولصناع السياسة في المجتمعات المسلمة حول العالم.

يقرّ الإسلام بحق عصمة الحياة والملك والشرف من دون أي تمييز يستند إلى الصفات الموروثة أو الفطرية على غرار العرق أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية أو الدين. ويمنح الإسلام النساء والرجال حقوقاً جوهرية متساوية؛ ويعتبرهم متساوين أمام القانون ويقبل

الدكتور رجب شنتورك هو رئيس جامعة ابن خلدون في اسطنبول، تركيا. أجرى أبحاثاً في مجال حقوق الإنسان كباحث زائر في كلية الحقوق في جامعة إيموري في أتلانتا (2002-2003). وواصل أبحاثه حول حقوق الإنسان كزائر في الأكاديمية البريطانية في كلية العلوم الاجتماعية والحقوق في جامعة أكسفورد بروكس، وألقى محاضرات حول الموضوع نفسه في جامعات مختلفة في المملكة المتحدة. كتب بإسهاب عن مفهوم التعددية والإسلام وحول الإسلام وحقوق الإنسان. في هذه المقابلة الموجزة، يناقش حقوق الإنسان من منظور «الآدمية».

1. كيف تصف الارتباط بين التقليد الإسلامي وخطاب حقوق الإنسان؟

ثمة قاعدة قانونية في الشريعة تنص على أن «العصمة بالآدمية». ويشمل حق العصمة هذا حرمة الحياة والأموال والديانة والعقل (حرية التعبير) والعائلة والشرف. ويؤيد كل العلماء الحنفيين (أحد مذاهب الفقه الإسلامي)<sup>1</sup> هذه النظرة وكذلك يفعل العلماء في مذاهب أخرى من الفقه الإسلامي.

عليه، واستناداً إلى وجهة النظر هذه، فإنه يكفي أن يكون المرء إنساناً ليمتلك الحقوق البشرية بصرف النظر عن السمات الفطرية والموروثة والمكتسبة على غرار الجنس والدين والعرق والجنسية.

2. لقد خصصت الكثير من الوقت للبحث في خطبة وداع النبي محمد. ما هي برأيك الدروس المستفادة منها والمتعلقة بشكل عام بالحكومات والمجتمعات (المجتمعات العربية والمجتمعات غير العربية والأغليات والأقليات)، بما

\* تنويه: نُشر النص الأصلي للمقال باللغة الإنجليزية، وهي النسخة المعتمدة. وقد تمت الترجمة بغرض نشر النتائج على نطاق أوسع. يمكن الاطلاع على النسخة

الإنجليزية للتقرير عبر هذا الرابط: <https://www.atlanticcouncil.org/publications/reports/the-islamic-tradition-and-the-human-rights-discourse>

<sup>1</sup> المذهب الحنفي هو واحد من المذاهب الأربعة في الفقه القانوني أو الديني للإسلام السني. ويُعتبر الأقدم ومن بين الأكثر تحريراً. إن الاسم مستمد من مؤسسه الإمام أبو حنيفة، وقد انتشر هذا المذهب خلال الإمبراطورية العباسية. إن المذهب السني-الحنفي هو أساساً غير هرمي وغير مركزي.

<sup>2</sup> Dr. Z. Haq, "The Last Sermon of Prophet Muhammad," E-books on Islam and Muslims, 1990, last accessed June 25, 2018 <http://www.cyberistan.org/islamic/sermon.html>

أ. أن لديهم حقوقاً تجاه بعضهم البعض. فالإسلام يحرم التمييز العرقي بشكل قاطع. الرق فقد شرعته ولم يعد قابلاً للتطبيق: للجميع الحق في الحرية.

ب. يستشهد المسلمون بحديث النبي محمد الذي لديه سلطة ملزمة في الشريعة الإسلامية. وعليه، فإن خطبة الوداع للنبي محمد ليست خطاباً أو عظة عادية. إذ يُعتبر الحديث المصدر الثاني للشريعة بعد القرآن الكريم. فقدت حالة الذمي شرعيتها ولم تعد قابلة للتطبيق: جميع المواطنين متساوون.

ج. يستشهد المسلمون بحديث النبي السابقة واللاحقة تلك الواردة في خطبة الوداع، وكذلك تفعل أدبيات الحديث المسجلة. فضلاً عن ذلك، يتضمن المصدر الأول للشريعة، أي القرآن الكريم، الكثير من الآيات التي تحمل المفاهيم نفسها. ولا أود هنا تقديم استطلاع عن الآيات القرآنية والحديث الشريف، بل أريد ببساطة التركيز على التدايمات المعاصرة لخطبة الوداع على حقوق الإنسان.

د. يدعم عدد كبير من تصريحات النبي السابقة واللاحقة تلك الواردة في خطبة الوداع، وكذلك تفعل أدبيات الحديث المسجلة. فضلاً عن ذلك، يتضمن المصدر الأول للشريعة، أي القرآن الكريم، الكثير من الآيات التي تحمل المفاهيم نفسها. ولا أود هنا تقديم استطلاع عن الآيات القرآنية والحديث الشريف، بل أريد ببساطة التركيز على التدايمات المعاصرة لخطبة الوداع على حقوق الإنسان.

هـ. يتعين على المجتمعات المسلمة في جميع أرجاء العالم - الحكومات العربية والحكومات غير العربية ومجتمعات الأقلية ومجتمعات الأغلبية، في أوروبا وآسيا، وكذلك كافة المجتمعات المسلمة في العالم - تحديد هذه المبادئ القانونية صراحةً والسعي إلى تحقيقها بأي طريقة ممكنة. النظام الدستوري ينسجم بالكامل مع المبادئ الإسلامية.

و. النظام البرلماني ينسجم بالكامل مع المبادئ الإسلامية. انتداب غير المسلمين في البرلمان ينسجم بالكامل مع المبادئ الإسلامية.

ز. الديمقراطية الانتخابية تنسجم بالكامل مع المبادئ الإسلامية. كانت الدولة العثمانية دولة عالمية. والأمر كذلك بالنسبة لدولة المغول في الهند. وعليه، تمثل هاتان التجربتان مثالين ممتازين على عالمية حقوق الإنسان في الإسلام.

3. انطلاقاً من الرد السابق، هل من مشاكل خاصة تتعلق بالحقوق الجندرية تعتقد أنه تم تسليط الضوء عليها بشكل خاص؟ وما هي أنواع السياسات الواجب تطبيقها في مختلف المجتمعات ذات الأغلبية والأقلية المسلمة في هذا الخصوص؟

فالتجربة العثمانية - إلى جانب تلك الأندلسية - تزودنا بأمثلة مثيرة للاهتمام حول كيفية معاملة اليهود والمسيحيين. وبالتالي، تقدم فهماً عن كيفية اندماجهم في العصر الحديث، إذا ما طبقت مبادئ إسلامية أصلية. وعلى نحو مماثل، توفر تجربة المغول في الهند مثلاً حول كيفية معاملة البوذيين والهندوس في ظل الأنظمة الإسلامية.

فعلى سبيل المثال، تُظهر تجربة المغول من دون شك عالمية الشريعة وحقوق الإنسان في الإسلام. فالهندوس والبوذيون لا يُعتبرون من أهل الكتاب، أي أنهم لا ينتمون إلى الأديان الإبراهيمية الإلهية. ومع ذلك، تم منحهم الحقوق نفسها التي تمتع بها المسيحيون واليهود في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي في ذلك الوقت. وعلى نحو مماثل، تم منح الزرادشتيين في إيران حقوقاً جوهرية رغم أنهم لم يتبعوا ديانة إبراهيمية إلهية.

4. هل يمكنك أن تخبرنا كيف تحمل التجربة العثمانية - التي كانت متعددة الثقافات ومتعددة الإثنيات ومتعددة الديانات - دروساً لنا اليوم، عالمياً، للمجتمعات ذات الأغلبية المسلمة والمجتمعات ذات الأقلية المسلمة؟ بما في ذلك العالم العربي وغير العربي؟

5. لقد نسي المسلمون اليوم هذا الإرث من الممارسات والإصلاحات العثمانية، ويبقى السؤال: ما الذي يجب فعله فيما يتعلق بالحالة القديمة للذمي<sup>4</sup> وضرية الذمي أو الجزية، متمثلاً في الخطاب المسلم الحديث؟ وبالنسبة للمفكرين وصناع السياسة المسلمين المعاصرين، ثمة الكثير لتعلمه من الإصلاحات القانونية العثمانية القديمة. وبشكل خاص:

<sup>3</sup> الأدمية ومعناها الحرفي الإنسانية، مستقاة من السلالات العربية لأدم، الإنسان الأول.

<sup>4</sup> الذمي هو شخص يعيش في منطقة غزاها الفتح الإسلامي وقد مُنح وضع حماية وسمح له بالاحتفاظ بديانته الأصلية.

<sup>5</sup> نظام الملل، المشتق من الكلمة العربية «ملة»، كان شكلاً من أشكال الحوكمة اللامركزية التي لجأت إليها الدولة العثمانية. وقد سمح لغير المسلمين، في ظل الحكم الإسلامي، أن يستخدموا قوانينهم (الدينية) الخاصة. وكان الهدف يكمن في السماح للأقليات في ظل الحكم العثماني بحس من الاستقلالية.

خطاب حقوق الإنسان بشكل مناسب ضمن نظرة عالمية إسلامية. إن إرث الفقه الحنفي قيم للغاية في هذا الخصوص.

ثانيًا، لم يعد هناك طبقة وسطى في بعض الدول ذات الغالبية المسلمة. وفي غياب الطبقة الوسطى في مجتمع ما، تغيب الجماعة التي يمكنها الدفاع عن حقوق الإنسان. وبالتالي، على المجتمعات المسلمة في أرجاء العالم إحياء تلك الطبقة الوسطى.

ثالثًا، ليس هناك سيادة قانون أو أصول قانونية في بعض الدول ذات الغالبية المسلمة، مما يطرح تحديًا علينا تذليله إذا ما أردنا إحياء الخطاب الإسلامي.

رابعًا، تعتمد بعد الدول المسلمة اقتصاديًا وسياسيًا على دول أخرى وهي غير مكثفة ذاتيًا.

أخيرًا، تغض بعض الدول الغربية القوية في بعض الأحيان الطرّف عن انتهاكات حقوق الإنسان، حتى أنها تدعمها في أحيان أخرى في العالم الإسلامي. وبقيامها بهذا الأمر، تساهم في خسارة خطاب حقوق الإنسان قوته وشرعيته في أعين الشعوب المسلمة، وتقوّض بالتالي أي مسعى إسلامي لتعزيز هذه الحقوق.

رئيسية وهي: الملة الإسلامية تحت حكم الخليفة السلطان في إسطنبول والملة الأرثوذكسية تحت حكم البطريرك الأرثوذكسي في إسطنبول والملة اليهودية تحت حكم الحاخام الأكبر ومقره في إسطنبول أيضًا. وكان يُطلق على أتباع الملل غير المسلمة اسم أهل الذمة وكانت الضريبة المدفوعة تُعرف باسم الجزية.

وفي عام 1856، انتهى نظام الملل عندما أقدم السلطان العثماني على إلغاء حالة الذمي والجزية بموجب مرسوم ملكي واعتمد المواطنة الشاملة للجميع في ظل الحكم العثماني. كما تمّ إلغاء مؤسسة الرق عام 1847 على يد السلطان عبد المجيد. واستندت الإصلاحات في الشريعة والنظام السياسي إلى المشورة السياسية المقدمة من مجموعة من العلماء، وعلى رأسهم شيخ الإسلام العثماني - المفتي الأكبر في الشريعة في الدولة العثمانية آنذاك.

وفي عام 1879، اعتمد العثمانيون نظامًا دستوريًا وبرلمانيًا بموافقة العلماء العثمانيين، ونظموا عدة انتخابات قبل الهزيمة العسكرية للعثمانيين عام 1918. وأغلق الجيش البريطاني البرلمان العثماني، الذي ضمّ أعضاء مسيحيين ويهود، بعدما غزا إسطنبول.

5. ما هي أكبر التحديات التي تواجه المسلمين في سعيهم إلى تجديد الخطاب الإسلامي، سواء في العالم العربي أو في المجتمعات ذات الأقلية المسلمة أو في أماكن أخرى؟ وكيف ترتبط هذه التحديات بخطاب حقوق الإنسان؟

أولاً، إن الإرث المفاهيمي والعملية الطويل والغني لحقوق الإنسان العالمية في الشريعة والتاريخ الإسلامي غائبة اليوم عن أذهان المفكرين وصناع السياسة المسلمين. وهذا ما يحول دون ترسيخ